

التفسير

عناصر الموضوع

١١٢	مفهوم التفسير
١١٣	التفسير في الاستعمال القرآني
١١٤	الألفاظ ذات الصلة
١١٦	دلالات التفسير العقدي
١٢٢	مظاهر التفسير
١٣١	آثار التفسير الإيمانية على العبد
١٣٦	آثار التفسير في عمارة الأرض

مفهوم التسخير

أولاً: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «سخر: السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستدلال، من ذلك قولنا سخر الله عز وجل الشيء، وذلك إذا ذلله لأمره وإرادته، ثم قال: ومن الباب: سخرت منه، إذا هزئت به، ولا يزالون يقولون: سخرت به، وفي كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّا نَسْخَرُهُمْ كَمَا نَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]»^(١).

والتسخير: تذليل الشيء وجعله منقاداً للآخر وسوقه إلى الغرض المختص به قهراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]. أي: ذللهم، وكل ما ذل وانقاد أو تهيا لك على ما تريد فقد سخر لك^(٢).
فالتسخير له معنيان:

الأول: التسخير والتذليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُ سَخِرَاءً حَتَّىٰ أَسْوَكَمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ قَضَاحُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠].
والثاني: السخرية والاحتقار، ومنه قوله: ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ قَضَاحُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠].
وقد استعمل القرآن الكريم هذا المعنى اللغوي للتسخير، وعلى ذلك وردت أقوال المفسرين في بيان هذه اللفظة كما سيأتي.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

والتسخير اصطلاحاً: تذليل الشيء وجعله منقاداً للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهراً.
ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]»^(٣).

قال ابن عاشور: «والتسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاق، أو شاغل بقهر وتخويف، أو بتعليم وسياسة بدون عوض»^(٤).

(١) مقاييس اللغة ٣ / ١٤٤.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤ / ٣٥٣، تاج العروس، الزبيدي ١١ / ٥٢٢.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٣ / ٢٠٣.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٨ / ١٦٨.

التسخير في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سخر) في القرآن (٤٢) مرة، يخص التسخير منها (٢٧) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٢	﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]
المصدر	١	﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]
اسم المفعول	٤	﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَنْتَبِهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]

وجاء (التسخير) في القرآن بمعناه اللغوي العام، وهو السياقة إلى الغرض المختص قهراً^(٢)، ومنه تسخير العبيد والأسرى، وتسخير البهائم، وكذلك تصريف الشيء غير ذي الإرادة، في عمل عجيب، يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام؛ كتسخير الفلك للمخرف في البحر بالريح، وتسخير السحاب للأمطار، وتسخير النهار للعمل، والليل للسكون، وتسخير الليل للسير في الصيف، والشمس للدفع في الشتاء، والظل للتبريد^(٣).

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٠٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨ / ١٦٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التذليل:

الذل لغة:

ضد العز، ومنه: التذليل، وهو الخضوع والانقياد والاستكانة، واللين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]. أي: وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها^(١).

التذليل اصطلاحاً:

الخضوع والانقياد والاستكانة، واللين، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]. أي: منقاداً غير متعصبة^(٢).

والتذليل: جعل الشيء منقاداً من غير صعوبة، وتسهيله على وجه يتنفع منه العباد^(٣).

الصلة بين التسخير والتذليل:

أنهما بمعنى واحد، وهو تذليل الشيء، وجعله منقاداً للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهراً، وبينهما عموم وخصوص، فالتذليل يخص الله كما يخص البشر، بينما التسخير فلا يسخر إلا الله^(٤).

٢ الانقياد:

الانقياد لغة:

الخضوع والطاعة والإذعان، تقول: قدته فانقاد، واستقاد لي، إذا أعطاك مقادته، وانقاد فلان للأمر وأعطى القيادة إذا أذعن طوعاً أو كرهاً^(٥).

- (١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢ / ٣٤٥، تاج العروس، الزبيدي ٢٩ / ١٣.
- (٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٣٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣ / ١٧ تفسير القرآن، السمعاني ٥ / ١٣٧.
- (٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥ / ١٣٧.
- (٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧ / ٣٢١.
- (٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢ / ٥١٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٣١٣، تاج العروس، الزبيدي ٩ / ٧٧.

الانقياد اصطلاحاً:

الخضوع والذل والطاعة والإذعان، يقال: انقاد للأمر والطريق سهل واستقام^(١)، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له.

الصلة بين التسخير والانقياد:

أنهما بمعنى واحد، وهو: تذليل الشيء وجعله منقاداً للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهراً، والتسخير أعم من الانقياد، فيشمل ما كان داخلاً تحت قدرة الإنسان وتسخير حقيقته، كالحوان، وما كان داخلاً تحت تصرفه بتسخير وإلهام وتعليم، كتسخير الفلك^(٢).

٣ التسليط:

التسليط لغة:

التغليب، وإطلاق القهر والقدرة، يقال: سلطه الله عليه، أي: جعل له عليه قوة وقهراً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَبِيتٌ أَوْ جَاءَ وَكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْنِلُوكُمْ أَوْ يَقْنِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْنَلُوكُمْ فَإِنْ آَعَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْنِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]^(٣).

التسليط اصطلاحاً:

التحكم، والتمكين، والسيطرة، والقوة، والقهر، والغلبة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْنَلُوكُمْ فَإِنْ آَعَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْنِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]^(٤)، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له.

الصلة بين التسخير والتسليط:

أنهما بمعنى واحد، وهو: تذليل الشيء وجعله منقاداً للآخر، وسوقه إلى الغرض المختص به قهراً، ولكن التسخير يقال في المحبوب والمكروه، والتسليط يقال في المكروه.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢ / ٧٦٥، تاج العروس، الزبيدي ٩ / ٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨ / ١٦٨.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣ / ٩٥، لسان العرب، ابن منظور ٧ / ٣٢١، تاج العروس، الزبيدي ١٩ / ٣٧٧.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣ / ٢٤٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١ / ٤٤٣.

دلالات التسخير العقديّة

إن تسخير هذا الكون بما فيه من المنافع لهذا الإنسان العاجز الضعيف، فيه دلالة على الربوبية والألوهية وصفات الله تعالى، كما أنها تدل على البعث والنشور، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولاً: دلالاته على الربوبية والألوهية:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على الربوبية والألوهية.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مِّنَ آيَاتِهِ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

الرب: هو السيد والمالك، والخالق والمدير، والمربي والمصلح، والقيم والمنعم، والإله: هو المعبود، أي: الذي يتوجه إليه الإنسان عند الشعور بالحاجة إلى ما يعجز عنه بكسبه ومساعدة الأسباب له، فيدعوه لكشف الضر أو جلب النفع، ويتقرب إليه بالأقوال والأعمال التي يرجى أن ترضيه، وأما اسم الجلالة الأعظم (الله) فهو اسم لرب العالمين، خالق الخلق أجمعين، الذي ينفي الموحدون الحنفاء ربوبية غيره وألوهية سواه، ويقول بعض المشركين: إنه أكبر الأرباب أو رئيسهم، وأعظم الآلهة أو مرجعهم الذي يشفعون

عنده، وكان مشركو العرب وأمثالهم ينفون وجود رب سواه، وإنما يعبدون آلهة تقربهم إليه^(١).

يخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام، وهي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم، وفيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول: على أنه الواحد المستحق لأن يعبد وحده، وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء، وأنها من أعظم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

افتتح الآية باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى ﴿رَبِّكَ﴾ [الرعد: ١]، لأنه معين به لا يشتبه غيره من آلهتهم ليكون الخبر المقصود جارياً على معين لا يحتمل غيره؛ إبلاغاً في قطع شائبة الإشراك، والذي رفع هو الخبر، وجعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أن من تثبت

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٨ / ٣٩٥، تفسير المراغي ٨ / ١٦٩، الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمروس ص ١٣٨، تاج العروس، الزبيدي ٢ / ٤٦٣.

وله ليس له من الخلق ولا من الأمر شيء^(٢).
قال سيد قطب عند تفسير قوله تعالى:
﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ
عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى
أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ۝﴾ [الزمر: ٥].

«وهذه اللفظة إلى ملكوت السماوات
والأرض، وإلى ظاهرة الليل والنهار، وإلى
تسخير الشمس والقمر، توحى إلى الفطرة
بحقيقة الألوهية التي لا يليق معها أن يكون
هناك ولد ولا شريك، فالذي يخلق هذا
الخلق وينشئه إنشاء، لا يحتاج إلى الولد
ولا يكون معه شريك، وآية الوجدانية
ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض،
وفي الناموس الذي يحكم الكون، والنظر
المجرد إلى السماوات والأرض يوحي
بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة»^(٣).

ثانياً: دلالاته على أسماء الله وصفاته:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير
على أسماء الله وصفاته.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ
لِتَجْرِيَ الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنْفِئَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ۝﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

(٢) انظر: تفسير المراغي ٨ / ١٧٤، أضواء البيان،
الشقيطي ٢ / ٣٤٠.
(٣) في ظلال القرآن ٥ / ٣٠٣٨.

له هو المتوحد بالربوبية؛ إذ لا يستطيع
مثل تلك الصلة غير المتوحد ولأنه مسلم
له ذلك، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى
يُؤْفَكُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٦١]^(١).

وقوله جل جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا
لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝﴾
[الأعراف: ٥٤].

وإغشاؤه الليل النهار: هو تسخيرهما،
وقوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
۝﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقوله جل وعلا: ﴿وَأَيَّاهُ لَهُمْ أَيْلُ نَسْلَخُ
مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۝﴾ وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمْسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
۝ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ
۝﴾ [يس: ٣٧-٣٩].

فقد بين سبحانه إلهيته وربوبيته: بأن
هذا الكون وكل ما فيه من الخيرات الكثيرة
والنعم العظيمة؛ فهي منه، وتحت تدبيره
وتسخيره، فيجب على عباده أن يشكروه
عليها، ويعبدوه دون غيره مما عبدوه معه

(١) انظر: تفسير المراغي ٨ / ١٧٤، التحرير
والتنوير، ابن عاشور ١٣ / ٨٠.

﴿١٣﴾ [الجاثية: ١٢-١٣].

يخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن من فضله وإنعامه أنه سخر لخلقه هذا الكون بما فيه، فلا يوجد شيء في هذا الكون إلا وللإنسان به انتفاع من وجوه، فهو سبحانه الذي خلق البحر بهذه الخصائص، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص، وجعل خصائص الضغط الجوي، وسرعة الرياح، وجاذبية الأرض، وسائر الخصائص الكونية الأخرى؛ مساعدة على أن تجري الفلك في البحر، وهدى الإنسان إلى هذا كله، فأمكنه أن يتنفع به، وأن يتنفع كذلك بالبحر في نواح أخرى: ﴿وَلْيَتَنَزَّلُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، كالصيد للطعام وللزينة، وكذلك التجارة، والمعرفة، والتجربة، والرياضة، والنزهة، وسائر ما يبتغيه الحي من فضل الله في البحار، فالسماء لهم بناء، والأرض لهم مهاد، وفي البحر منافع عظيمة، والشمس ضياء، وفي كل مخلوق من هذه المخلوقات منافع، وقد هدى الله تعالى الإنسان للانتفاع بهذه النعم (١).

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، هذا تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولاً، ثم التعميم ثانياً، فمن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٢٣٠/ ١٣.

والشمول، فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما في السماوات وما في الأرض، من قوى وطاقات، ونعم وخيرات، مما يصلح له ويدخل في دائرة خلافته: ﴿بِجَمِاعٍ مِنْهُ﴾، فكل شيء في هذا الوجود منه وإليه، وهو منشئه ومدبره، وهو مسخره أو مسطره، وهذا المخلوق الصغير الإنسان، مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية، وأتاح لهم الانتفاع به في كل وجه من وجوه الانتفاع، حسب استعدادهم وقدرتهم على التصرف فيه (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: في ذلك المذكور من خلقها وتديرها وتسخيرها؛ دالٌّ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخلقة دالٌّ على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة دالٌّ على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره، وكل ذلك دالٌّ على أنه وحده المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٣٧.

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١﴾، وفيه قولان:

الأول: قال ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلاً، كل يوم لها منزل، وذلك يتم في ستة أشهر، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى، وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلاً، فالمراد بقوله: كل يجري لأجل مسمى هذا، وتحقيقه: أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيراً خاصاً إلى جهة خاصة، بمقدار خاص من السرعة والبطء، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك.

والقول الثاني: أن المراد: كونهما متحركين إلى يوم القيامة، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات، كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ١-٢] (٢).

وقال المهايمي: «إن ربط العالم ببعضه ببعض دليل توحيده، وجعل البعض سبب البعض، دليل حكمته، وجعل الكل مسخراً للإنسان، دليل كمال جوده، فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم، استوجب أعظم وجوه الانتقام» (٣).

والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة لا تقبل ريباً ولا شكاً (١).

قال الرازي: «وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر: فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة: النوع الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام، وذلك لأن الأجسام متماثلة، فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون، فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص، وأيضاً أن كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة، فلا بد أيضاً من مخصص، لا سيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات، وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحيان وتسكن في البعض، فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر؛ لا بد فيه أيضاً من مرجح....

ثم قال: والنوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ٣٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٨ / ٥٢٦.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨ / ٤٢٨.

ثالثاً: دلالاته على البعث:

لقد ذكر القرآن الكريم دلالة التسخير على البعث.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

فقد بين سبحانه أن هذا الكون وكل ما فيه من الخيرات الكثيرة والنعم العظيمة، وهذه الصفات الدالة على كمال قدرته، دليل على قدرته في البعث والإعادة، فخلق السماوات والأرض، وتسخير الشمس والقمر؛ هو تذليلهما للعمل على ما جعل الله لهما من نظام السير، سير المتبوع والتابع.

وعظفت جملة ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ على جملة ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾؛ لأن ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه، فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير. فتلك المناسبة اقتضت عطف الجملة التي تضمنته على الجملة التي قبلها.

والأجل: هو أجل فنائهما، فإن جريهما لما كان فيه تقريب فنائهما جعل جريهما كأنه لأجل الأجل، أي: لأجل ما يطلبه ويقتضيه أجل البقاء.

ويجوز أن يكون المراد بالأجل: أجل حياة الناس الذي ينتهي بانتهاء الأعمار المختلفة، وليس العمر إلا أوقافاً محدودة وأنفاساً معدودة، وجري الشمس والقمر تحسب به تلك الأوقات والأنفاس، فصار جريهما كأنه لأجل.

والمسمى: المَجْعُول له وسم، أي: ما به يعين، وهو ما عينه الله لأن يبلغ إليه.

ويشهد لهذا حديث أبي ذر، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً: (أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك،

على أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتسخيرها قادر على البعث والإعادة، **﴿تُوقِنُونَ﴾**، أي: تتيقنوا وتحققوا، أو لتعلموا علم اليقين القاطع الذي لا شك فيه أن الله قادر على البعث والإعادة، والحساب والجزاء، وإحياء الموتى من القبور في أي مكان دفنوا، في البر أو البحر أو في أجواف الحيوان^(٤).

قال الشوكاني: «والمراد من هذا: تنبيه العباد أن من قدر على هذه الأشياء فهو قادر على البعث والإعادة، ولذا قال: **﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَآوَرَبَّكُمْ تُوقِنُونَ﴾** [الرعد: ٢]. أي: لعلمكم عند مشاهدة هذه الآيات توقنون بذلك لا تشكون فيه، ولا تمترون في صدقه»^(٥).

فتصبح طالعة من مغربها)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أندرون متى ذاكم؟ ذاك حين **﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾** [الأنعام: ١٥٨] (١) (٢).

وقوله تعالى: **﴿إِلَهُهُ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾**، أي: أن الذي فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم، هو العزيز في انتقامه ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين إليه منها بعفوه لهم عنها، والجملة استئناف ابتدائي، هو في معنى الرعيد والوعد، فإن وصف العزيز كناية عن أنه يفعل ما يشاء لا غالب له، فلا تجدي المشركين عبادة أوليائهم، ووصف الغفار مؤذن باستدعائهم إلى التوبة باتباع الإسلام، وفي وصف الغفار مناسبة لذكر الأجل؛ لأن المغفرة يظهر أثرها بعد البعث الذي يكون بعد الموت، وانتهاء الأجل تحريضاً على البدار بالتوبة قبل الموت حين يفوت التدارك^(٣).

وقوله تعالى: **﴿يَفْصَلُ الْآبَتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَآوَرَبَّكُمْ تُوقِنُونَ﴾**، أي: يبين الآيات التي تدل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم ١٥٩، ١٣٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٢٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٢٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ١٠٤.

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٩.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٧٧.

مظاهر التسخير

إن الله تعالى سخر كل ما في هذا الكون لخدمة العباد واستخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فسخر الشمس والقمر والأرض وسخر ما يركب ويؤكل ويلبس، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تسخير الشمس:

من نعم الله العظيمة تسخير الشمس في منافع العباد.

قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْمَرْثِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢].

بينت الآيات: أن من نعم الله على العباد تسخير الشمس والقمر لمنافعهم، وتأثير الشمس والقمر أظهر الآثار السماوية، وتأثير الشمس أظهر من تأثير القمر، وأظهر الآثار بعد الشعاع التسخين الحاصل منه، ولولا ذلك ما كان كون ولا فساد، ولا استحالة

ولا ليل، ولا نهار ولا فصول، ولا مزاج ولا حيوانات، ولا غيرها، ومن آثارهما انتشار الضوء^(١)، ومعرفة عدد السنين والحساب، وتأثيرهما في إزالة الظلمة، وإصلاح النبات والحيوان، فالشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، فلولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة، ولولاها لاختلفت مصالح العالم بالكلية^(٢).

ومنافع الشمس والقمر اللذين سخرهما الله لأهل الأرض لا يحصيها إلا الله، وقدم القرآن الكريم ذكر الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعا وأعم فضلا من نعمة القمر.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٦].

وقدم هنا القمر على الشمس، قيل: لمراعاة الفاصلة، وقيل: لأن ارتفاع أهل السموات العائد عليهن الضمير به أكثر^(٣).

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِئَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: ٥].

وقال جل وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١٠.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣٩١/ ١١.

(٣) انظر: الإتيان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٤٢، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٣٩.

وقال سيد قطب: «إن هذا المخلوق الصغير.. الإنسان.. يحظى من رعاية الله سبحانه بالقسط الوافر، الذي يتيح له أن يسخر هذه الخلائق الكونية الهائلة، ويستمتع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى سنن الكون الإلهي الذي يحكمها، والذي تسير وفقه ولا تعصاه! ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء من قوى الكون الهائلة، بل ما استطاع أن يعيش معها وهو هذا القزم الصغير، وهي هذه المردة الجابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام، والبحر أحد هذه الجابرة الضخام التي سخرها الله للإنسان، فهدها إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها عرف منه هذه الفلك التي تمخر هذا الخلق الهائل، وهي تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها!»^(٤).

ثانيًا: تسخير الأرض:

سخر الله عز وجل الأرض لعباده وذلّلها وهبها لهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٢٢٦.

﴿أَيْنَيْنِ فَحَوَّآءَ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَددَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ وَفَصَّلَتْهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

إلى غير ذلك من الآيات المبيّنة لذلك التسخير لأهل الأرض^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

أي: دائمين في سيرهما وإنارتهمادرثهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات، وأصل الدأب: العادة المستمرة^(٢).

قال علي صبح: «ومن روعة الإعجاز في التصوير القرآني في مجال ذكر النعم التي سخرها الله تعالى لعباده؛ لينتفعوا بها، مع تأتي النعمة الأكثر نفعًا والأعظم فضلًا للعباد متقدمة على ما دونها في النفع والفضل؛ لذلك تقدمت الشمس على القمر، لأن نعمة الشمس أكثر نفعًا وأعم فضلًا من نعمة القمر، ويؤيد هذا اتساق الآيات بعضها مع بعض، وتلاؤم ما بعدها وما قبلها في ترابط وتلاحم وثيق»^(٣).

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٦٤.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٧٤، روح المعاني، الألوسي ٧/ ٢١٠.

(٣) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٣٩.

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال جل وعلا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحج: ١٣].

بينت الآيات: أن الله تعالى سخر لخلقه ما في السماوات وما في الأرض، من دابة، وشجر، وجبل، وجماد، وسفن، وغير ذلك لمنافعكم ومصالحكم.

وبدأ بذكر السموات والأرض لأنهما أصلان يتفرع عليهما سائر ما يذكر بعد من النعم، ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، أي: نعمة منه عليكم، فإياه فاحمدوا واشكروا.

وقد جاء هذا التسخير مبيناً في آيات أخر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

الذلول: فعول بمعنى مفعول، وهو مبالغة في التذليل، تقول: دابة ذلول بينة الذل، وهو تمكين الانتفاع منها عن تسهيل الاستقرار عليها وتثبيتها بالجبال، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ٢٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٢١ وَالْجِبَالَ أَرْسَسَهَا ٢٢ مَتَّعْنَا

لَكُمْ ٢٣ وَلَا تَمِيزَكُمْ ٢٤﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣] (١).

ومن تسخيرها: استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فذلّلها لنا لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج معادنها وبركتها، وجعلها طوع علوماً وأعمالنا، لنستخرج منها الصناعات النافعة، فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها -لاسيما في هذه الأوقات- كل ذلك داخل في تسخيرها لنا، وقد عرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصناعات إلى ما لا حد له، وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق.

قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعَبًّا وَقَنْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَائِقَ غُلَابٍ ٣٠ وَقُلُوبًا ٣١ وَأَبَا ٣٢ مَتَّعْنَا لَكُمْ ٣٣ وَلَا تَمِيزَكُمْ ٣٤﴾ [عبس: ٢٧-٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَتْكُهُمُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ ١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ [الرحمن: ١٠-١٣].

وقوله جل في علاه: ﴿الَّذِينَ جَعَلْنَا الْأَرْضَ كَهَاتَا ٢٥ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشِي شَجَرَاتٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢ / ٦٥، الهداية، مكي بن أبي طالب ١٠ / ٦٧٧٤، روح المعاني، الألوسي ٧ / ٢١١.

وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً قُرًّاءً ﴿٢٧﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧].

أي: أن من تسخير الله تعالى للأرض أن جعلها كفاتاً للإنسان في حياته؛ بتسهيل معيشتها منها وحياته على ظهرها، فإذا مات كانت له أيضاً كفاتاً بدفنه فيها.

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]؛ لترتبه على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها، وطلب الرزق في أنحائها؛ بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ.

والأمر في قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾، للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾، فيه امتنان من الله تعالى على خلقه، مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهها وحثاً للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

وعليه، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى، والاستغناء والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعته من حقها في هذا

الوجود^(١).

ثالثاً: تسخير البحر لاستخراج المأكّل والملبس:

لقد ذكر القرآن الكريم تسخير البحر لاستخراج ما يؤكل ويلبس منه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ مَوْخِرَ فِيهِ وَلِتَسْتَبِقُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

يخبر تعالى في هذه الآية أنه هو الذي سخر البحر، وهو الذي سخر ما فيه من منافع للناس، وهذه نعمة عظيمة من الله؛ حيث جعل البحر مستودعاً لا ينضب لمادة غذائية تعتبر شيئاً أساسياً في حياة معظم الشعوب، يتناولونها من البحر دون أن يخسروا مالاً وجهداً في تربيتها، ولولا ذلك لضاقت معيشة أكثر الناس؛ حيث إن عليها اعتمادهم في الغذاء، وبها يتجرون ويتكسبون، ومن رحمة الله بإباحتها حية وميتة في الحل والإحرام، حيث يؤكل منها السمك الطري.

والطري: ضد اليابس، ووصف سبحانه لحم أسماكها بالطراوة، لأن أكله في هذه الحالة أكثر فائدة، وألذ مذاقاً، فالمنة بأكله

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨ / ٢٣٨، القواعد الحسان، السعدي ص ٧١.

على هذه الحالة أتم وأكمل.

وقيل: في وصفه بالطراوة، تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله؛ لأنه يسرع إليه الفساد والتغير، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء، فسبحان الخبير بخلقه، ومعرفته ما يضر استعماله وما ينفع، وفيه أيضًا إيماء إلى كمال قدرته تعالى في خلقه الحلو الطري في الماء المر الذي لا يشرب^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًا وَتَبَسُّونَهَا﴾، أي: لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما، وأسند اللبس إليهم لأنهن من جملتهم، ولأنهن يتزين بها لأجلهم، والحلية: اسم لما يتحلى به الناس، وجمعها حلى وحلى، يقال: تحلت المرأة إذا لبست الحلي، والتعبير بقوله سبحانه: ﴿وَسْتَخْرِجُوا﴾ يشير إلى كثرة الإخراج فالسين والتاء للتأكيد، كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما في البحر من كنوز، وألا يتركوا ذلك لأعدائهم^(٢). ومما جاء في بهيمة الأنعام قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكَ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنَبِّحَ بِطُورِهِمْ مِّنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَرٍ لِّبَنَّا حَالِيصًا سَالِفًا لِّلشَّرِبِِينَ ۚ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [النحل: ٦٦-٦٧].

وقوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۖ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۖ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

لقد خلق الله سبحانه وتعالى بهيمة الأنعام لمصالح عباده، وجعلها مذلة مسخرة لقضاء شؤونهم الحياتية، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخبأؤهم وركوبهم وجمالهم. وعلى الرغم من أن هذه البهائم تملك من القوة الجسمية والعظمية أضعاف ما يملكه الإنسان؛ إلا أن سنة التسخير قد سلبها المقاومة والتمرد على إرادة الإنسان وتدييره، وهذا ما يوجب أداء حق الشكر لله سبحانه وتعالى، ولو ترك أمر تذليل هذه المخلوقات للإنسان لعجز عن تذليل ذبابة كما عجز من خلقها، ولكنها المشيئة الإلهية وقدرته في الخلق والتذليل والتسخير^(٣).

قال القاسمي: «والسر في إفراذه هذه

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٤١، مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ١٣٨.

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٢٧٧، الوسيط، طنطاوي ٨/ ١١٨، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي ص ٢٤٠.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٢٢، الوسيط، طنطاوي ٨/ ١١٨.

قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها، وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم؛ فإنه يحس لتوه إنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كل شيء حوله، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل فيها قطعة لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن، أو يلبس ثوباً من شعر أو صوف أو وبر، لمسة وجدانية، تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته، ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله، وكل ما يستخدمونه في حي أو جامد في هذا الكون الكبير، وتعود حياته كلها تسييحاً لله وحمداً، وعبادة آناء الليل وأطراف النهار»^(٢).

وفي هذه الآية: دعوة للمؤمنين إلى استغلال هذه النعمة العظيمة والاستفادة منها بكل الوسائل الممكنة والمتاحة، وشكر الله تعالى عليها.

رابعاً: تسخير ما يركب:

من نعم الله تعالى على عباده تسخير ما يركب.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۚ إِنَّكُمْ لَسْتَوُونَ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا

النعمة، والتذكير بها دون غيرها من نعمه وآلائه، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم، إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخبأؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم، لما قامت لهم قائمة، لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة، ومن كانوا كذلك، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يقيهم، ويشكروه ويعرفوا له حقه، من عبادته وحده وتعظيم حرمانه وشعائره، فالاعتبار بها من ذلك، موجب للاستكانة لرازقها، والخضوع له والخشية منه، هذا أولاً. وثانياً: قد يقال: إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجل، وهو مواساة البؤساء منها، نظير الآية -على ما ظهر لنا- قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ ۝٢ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٣﴾ [قریش: ٣-٤]. فإن ذلك من أجل ما يرضيه تعالى»^(١).

وقال سيد قطب: «إن هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها، وذلّلها لهم، يركبونها، ويأكلون منها، ويشربون ألبانها، ويتفنعون بها منافع شتى، وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره، ومن إبداعه: ما أودع من الخصائص في الناس والأنعام، فجعلهم

(١) محاسن التأويل ٧/ ٢٤١.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٦.

أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ [الزخرف:

١٢-١٣].

يخبر جل وعلا في هذه الآية خلقه بما سخر لهم من قوى وطاقات، ووسائل المواصلات والنقل والتجارة، وأنه هو الذي سخر لهم ما يركبونه في البر والبحر من الفلك، التي هي السفن، ومن الأنعام والدواب وغيرها من كل ما يركب، فيدخل فيه الطائرات والغواصات والسيارات على اختلاف أنواعها.

والتسخير: التذليل والتطويع، وتسخير الله الدواب هو: خلقه إياها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحاً لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ووضع القلوع والمجاذيف، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية، ولهذا عقب بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مطيقين، أي: بمجرد القوة الجسدية، أي: لولا التسخير المذكور^(١).

وقوله تعالى: ﴿رَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ إن تسخير وسائل النقل

والمواصلات من الأنعام والدواب والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل من أعظم النعم على البشرية.

وهذا التسخير سهل للناس سبل الحياة، ولذلك يمتن الله على عباده بتسخيرها، وجيء بفعل جعل مراعاة؛ لأن الفلك مصنوعة وليست مخلوقة، والأنعام قد عرف أنها مخلوقة؛ لشمول قوله: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ إياها، ومعنى جعل الله الفلك والأنعام مركوبة: أنه خلق في الإنسان قوة التفكير التي ينساق بها إلى استعمال الموجودات في نفعه، فاحتال كيف يصنع الفلك ويركب فيها، واحتال كيف يروض الأنعام ويركبها.

وقدم الفلك على الأنعام؛ لأنها لم يشملها لفظ الأزواج، فذكرها ذكر نعمة أخرى، ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة، فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوباً عطف عليها الأنعام، فصار ذكر الأنعام مترقياً للنفس لمناسبة جديدة^(٢).

ولما كانت هذه النعمة عظيمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/

١٧٥، بيان المعاني، عبد القادر العاني ٤/

٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٨٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٧٣.

فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معاشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهو الذي جعل لكل واحد من عباده درجة معينة في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان. وجعل لكل واحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام.

وجعل الله تعالى هذا التفاوت بين العباد لحكمة؛ لأنه لو سوى بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدًا، ولم يصر أحد منهم مسخرًا لغيره، وحيثئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا.

وفي هذا التفاوت الذي بين الناس، وفي درجات التفاضل المقسومة بينهم، يتحرك الناس، فيلحق المتأخر بالمتقدم، ويسعى المتقدم ليلحق بمن تقدم عليه وفضله، أو ينزل عن مكانه الذي هو فيه ليأخذه غيره.

وهكذا يتحرك الناس في الحياة صعودًا وهبوطًا، ويتبادلون المواقف، ويتنازعون منازل الفضل، وبهذا تظل ريح الحياة في حركة دائمة مجددة، يتنفس فيها الناس

بألستكم، وتقيدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيرًا من الخلق تسكرهم النعم، وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، وهذا يشير إلى أن الإنسان إذا غفل عن ذكر الله، والنعمة غائبة عنه، فإنه لا ينبغي أن يغفل والنعمة حاضرة بين يديه، يعيش فيها وينعم بها، ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾، أي، وتقولوا سبحان الذي ذلله وجعله منقادًا لنا، متعجبين من ذلك، وليس الإشارة للتحقير، بل تصوير الحال وفيها مزيد تقرير لمعنى التعجب، والكلام - وإن كان إخبارًا على ما سمعت أولًا - يشعر بالطلب^(١).

خامسًا: تسخير بني آدم بعضهم لبعض:

سخر الله تعالى العباد بعضهم لبعض. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢].

ذكرت الآية أن الله تعالى هو الذي يقسم

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥ / ١٧٥، تفسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣ / ١١٣، تفسير الشعراوي ١٧ / ١٠٧٢١.

أنفاس الأمل، والقوة، والحياة^(١).

وقد أوضح تعالى الحكمة من هذا التفاضل والتفاوت في الأرزاق والحظوظ، والقوة والضعف، ونحو ذلك، فقال تعالى: ﴿لَسْتَ تَخَذُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: يخدم بعضهم بعضًا، ويسخر بعضهم لبعض؛ لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك. فمن حكمته جل وعلا أن يجعل هذا فقيرًا مع كونه قويًا قادرًا على العمل، ويجعل هذا ضعيفًا لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيء له دراهم يؤجر بها ذلك الفقير القوي، فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي؛ فتتظم المعيشة لكل منهما.

وهكذا ليس فيهم خادم ومخدوم، بل كلهم يخدم ويخدم، ويستوى في هذا العالم والجاهل، والزارع، والصانع، والقوى والضعيف، والحاكم والمحكوم، إنهم جميعًا أشبه بالآلة الميكانيكية، لا تكون آلة عاملة، ذات قوة محرركة، إلا إذا عمل كل جزء من أجزائها، أيًا كان وضعه فيها، وأيًا كانت قيمته الذاتية بين أجزائها، بل إنهم أشبه بالجسد الإنساني في تجاوب أعضائه جميعًا في العمل على كل ما من شأنه أن يحفظ عليه

حياته، ويوفر له أمنه وسعادته^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، يعني أن النبوة والاهتداء بهدى الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة خير مما يجمعه الناس في الدنيا من حطامها^(٣). قال سيد قطب: «طبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل، والتفاوت في مدى إتقان هذا العمل.

وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض، ولو كان جميع الناس نسخًا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة، ولبقيت أعمال كثيرة جدًا لا تجد لها مقابلًا من الكفايات، ولا تجد من يقوم بها، والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها، وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت الرزق، هذه هي القاعدة. أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع، ومن نظام إلى نظام، ولكنها لا تنفي القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية لنمو الحياة، ومن

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١٢٢٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٢.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١١٤.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٤، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٤/ ٣٥٩.

آثار التسخير الإيمانية على العبد

إن تسخير هذا الكون بما فيه من المنافع والنعم العظيمة في المأكل والملبس والمشرب والزينة ووسائل النقل والمواصلات، وغيرها من النعم، يوجب على الإنسان شكر الله تعالى وتعظيمه، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولاً: شكر الله تعالى:

من آثار التسخير الإيمانية التي ذكرها القرآن الكريم شكر الله.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْريَ أَفْئَكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلْيَسْغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجن: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْبِيرٍ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِنَّا وَجَّعْتُ جُنُوبَهَا فَكَلُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمَعَنَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

إن تسخير البحار وجعلها خاضعة وميسرة لمنافع الإنسان، فتجري عليها السفن في حمل البضائع والأسفار واستخراج الطعام واللباس منها، وتسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل.

وتسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم فتذبح

ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس، ولا بين أجر الجندي وأجر القائد، على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم، وهزموا أمام الناموس الإلهي الذي تقرر هذه الآية من كلام الله، وهي تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة^(١).

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٣١٨٧.

بنعم الله على معصيته فليس من الشاكرين؛ وإنما هو كنود كفور.

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها، إلا ما كان استدراجاً، فقال في شكر النعمة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال في الكفران وعواقبه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

وبهذه المناسبة: فعلى كل المسلمين أفراداً وجماعات، أن يقابلوا نعم الله بالشكر، وأن يشكروها بالطاعة والعبادة لله، وأن يحذروا كفران النعم^(٢).

ويخص البذن بالذكر لأنها أعظم الهدى، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم، فجعل فيها خيراً وهي حية تركب وتحلب، وهي ذبيحة تهدي وتطعم، فجزاء ما جعلها الله خيراً لهم أن يذكروا اسم الله عليها، ويتوجهوا بها إليه وهي تهيأ للنحر بصف أقدامها، ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾، والإبل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا﴾، واطمأنت على الأرض

وتركب وتحلب، وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يوجههم إلى الأدب الواجب في شكر هذه النعمة وتذكر المنعم كلما عرضت النعمة، لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل حركة في الحياة.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من نعمه، وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ٧١﴾ ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢﴾ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾ [يس: ٧١-٧٣].

استفهام تعجيبى لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدة فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين^(١).

وأصل الشكر في اللغة: الوصف بالجميل على جهة التعظيم على النعمة، من اللسان والجنان والأركان، وقيل: الظهور، ويضاده الكفران، وهو نسيان النعمة وسترها، وشكر العبد لربه: هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل، وأما من يستعين

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٠، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٣٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦٩.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٧٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٠.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لَنَسْتَوْفُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ [الزخرف: ١٢-١٣].

إن تسخير وسائل النقل والمواصلات من الأنعام والسفن والسيارات والطائرات، وغيرها من وسائل النقل من أعظم النعم على البشرية، لذا يجب على الإنسان تعظيم الله حين ركوبها والاستواء عليها، وقد نبهنا ربنا جل وعلا وعلمنا كيفية هذا التعظيم بقوله: ﴿وَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص، وهو من مادة السبح والسباحة، وهي: الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر.

و ﴿سُبْحَنَ﴾، اسم يدل على الثبوت والدوام، فكان تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزه، كما نقول في الخلق، فالله خالق ومتصف بهذه الصفة قبل أن يخلق شيئاً، وهو يدل على تنزيه الله جل وعلا أكمل التنزيه وأتمه، عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

والإشارة في قوله: ﴿هَذَا﴾، راجعة إلى لفظ ﴿مَا﴾، من قوله: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وجمع الظهور نظراً إلى معنى ما؛ لأن معناها عام

بموتها أكل منها أصحابها استحباباً، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل، والفقير المعتر الذي يتعرض للسؤال، فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة^(١).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: ذللناها لكم، وجعلناها منقاداً لكم، تفعلون بها ما شئتم من نحر وركوب، وحلب وغير ذلك من المنافع، ولولا أن الله ذللها لكم لم تقدروا عليها؛ لأنها أقوى منكم، ألا ترى البعير إذا توحش صار صاحبه غير قادر عليه، ولا متمكن من الانتفاع به، وقوله هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ قد قدمنا مراراً أن لعل تأتي في القرآن لمعان، أقربها اثنان: أحدهما: أنها بمعناها الأصلي، الذي هو الترجي والتوقع^(٢).

وفي الآيات تسخير الله تعالى لهذا الكون دون مقابل يستوجب الشكر، وهذا هو الأدب الواجب في حق المنعم، يوجهنا الله إليه، لنذكره كلما استمتعنا بنعمة من نعمه التي تغمرنا، والتي نتقلب بين أعطافها ثم ننسأه.

ثانياً: تعظيم الله تعالى:

من آثار التسخير الإيمانية التي ذكرها القرآن الكريم: تعظيم الله تعالى.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٢٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٦٠.

شامل لكل ما تشمله صلتها، ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها^(١).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، ثم تذكروا مع التعظيم في قلوبكم وألستكم نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وذلك الذكر هو: أن يعرف أن الله تعالى خلق وجه البحر، وخلق الرياح، وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد.

فإذا تذكروا أن خلق البحر، وخلق الرياح، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته ليس من تدبير ذلك الإنسان، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى، فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمة التي لا نهاية لها.

وتقييدها في هذه الحالة وقت تبوء النعمة؛ لأن كثيراً من الخلق تسكرهم النعم، وتغفلهم عن الله، وتوجب لهم الأشر والبطر، فهذه الحالة التي أمر الله بها هي دواء هذا الداء المهلك، فإنه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله، وأن أصولها وتيسيرها

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٢٢١/٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧٤/٢٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٨٦/٧.

وتيسير أسبابها وبقائها ودفع ما يضادها أو ينقصها، كله من فضل الله وإحسانه، خضع لله وذل، وشكره وأثنى عليه، وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها، وتكون نعمة حقيقية.

فأما إذا قابلها بالأشر والبطر، ونسي المنعم، وربما تكبر بها على عباد الله، فهذه نقمة في صورة نعمة، وهي استدراج من الله للعبد سريعة الزوال، وشيكة بالعقاب عليها والنكال، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه^(٢).
وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، أي: بمجرد القوة الجسدية^(٣).

وفي الآية: تعظيم الله تعالى وتمجيده وشكره؛ لأنه هو الذي سخر لنا ما نركبه من الأنعام والسفن وذلها، ولو لم يذلها الله لهم لما قدرنا عليها، ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذله لهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك.

وقد علمنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم تعظيم الله عند الركوب.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرايه، الزجاج ٤٠٦/٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/٦٢١، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/١٢٥.

(٣) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٣٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/١٧٥.

سَخَّرَ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجِئْتُ جُنُوبَهَا فَكَلُّوا مِنْهَا وَاطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ [الحج: ٣٦-٣٧].

والتكبير في الآية: قيل: إنه ما يكون عند الذبح: بسم الله، الله أكبر، والأحسن أن يفسر بالتعظيم والتقديس والشكر، وترى أيضًا أنه قد أعيد في الآية حديث تسخير الأنعام، وتذليلها للناس، لأن في الإعادة تذكيرًا بالنعمة يبعث على شكرها والثناء على الله من أجلها، والقيام له بما يجب لعظمته وكبريائه، لأنه تعالى سخر لهم تلك البهائم، وأخضعها لتصرفهم، وأراهم ما يصنعون فيها، وكيف يتقربون بها^(٢).

وفي الآية: دلالة على أن التقوى وشكر الله تعالى والإحسان في العمل له جل شأنه من أهم المطالب الشرعية، التي لا يجوز لأحد إغفالها أو التهاون فيها.

قال: (إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ركب راحلته، كبر ثلاثًا، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ثم يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا السفر، واطو لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، وأخلفنا في أهلنا)، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى أهله قال: (آيئون تائبون إن شاء الله عابدون، لربنا حامدون)^(١).

وإن تسخير الأنعام من إبل وبقر وغنم للإنسان وتمكنه من الانتفاع بها من أعظم النعم على البشر، لذا يطلب تعظيم الله حين ذبحها والتسمية عليها، والأكل منها.

وإن الله لا يتنفع من أعمال العباد بشيء، ولكن النفع يعود على الإنسان ذاته.

فما يقدمه من قرايين وهدايا للحرم المكي أو أضاحي أو نذور، فإنما يقصد به تربية الإنسان، وغرس جذور التقوى في نفسه، وأداء واجبه، وشكر نعمة الله عليه، وتكبيره على هداية الله إياه، وإحسانه القول والعمل.

قال الله تعالى مبيّنًا ما يطلب حال ذبح الإبل: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم ٩٧٨، ١٣٤٢ / ٢.

(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي ٢ / ١٦٤٧، تفسير آيات الأحكام، السائس ص ٥١٢.

آثار التسخير في عمارة الأرض

لقد ظهر أثر هذا التسخير في الكون في كل مناحي الحياة، في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فظهرت آثار مادية ومعنوية، وبيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولاً: الآثار الحسية:

لقد ذكر القرآن الكريم آثار التسخير المادية في عمارة الأرض.

قال تعالى: ﴿سَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالْقِطْرِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ ۝٣٧ وَمَا خَرَيْنَ مَقَرِّينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [ص: ٣٦-٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَسَّيْمَنَ الرِّيحِ غُدُوَهَا شَهْرًا وَوُؤْلُحُهَا شَهْرًا ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ ۚ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيتٍ ۚ أَعْمَلُوا مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

بينت الآيات الآثار الحسية، والتي منها: التجارة، والاقتصاد، والصناعة.

فأخبر تعالى أنه سخر لسليمان عليه السلام الريح، ومعنى تسخير الريح: خلق ريح تلائم سير سفنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شواطئ فلسطين رياحا موسمية تهب شهرا مشرقة لتذهب

في ذلك الموسم سفنه، وتهب شهرا مغربة لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين.

قال تعالى: ﴿وَلَسَّيْمَنَ الرِّيحِ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ۝٨١﴾ [الأنبياء: ٨١].

فأطلق الغدو على الانصراف والانطلاق من المكان تشبيهاً بخروج الماشية للرعي في الصباح، وهو وقت خروجها، أو تشبيهاً بغدو الناس في الصباح^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، والإسالة: جعل الشيء سائلا في الأرض كمسيل الوادي، وعين القطر ليست عينا حقيقة، ولكنها مستعارة لمصب ما يصهر في مصانعه من النحاس، حتى يكون النحاس المذاب سائلا خارجا من مساقى، ونحوها من الأنابيب، كما يخرج الماء من العين لشدة إصهار النحاس وتوالي إصهاره، فلا يزال يسيل ليصنع له آنية وأسلحة ودرقا، وما ذلك إلا بإذابة وإصهار خارقين للمعتاد بقوة إلهية.

شبه الإصهار بالكهرباء أو بالألسنة النارية الزرقاء، وذلك ما لم يؤته ملك من ملوك زمانه، ويجوز أن يكون السيلان مستعاراً لكثرة القطر كثرة تشبه كثرة ماء العيون والأنهار^(٢).

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٥٨.

(٢) انظر: المصدر السابق.

وقوله تعالى: ﴿وَعَوَّاصٍ﴾، من يغوصون له من الشياطين، أي: يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والمرجان، والغوص: النزول تحت الماء، والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملاً دون ذلك، أي: سوى ذلك الغوص المذكور، أي: كبناء المدائن، والقصور، وعمل المحارِب، والتماثيل، والجفان، والقُدور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة^(٤).

وظهر أثر هذا التسخير في الكون في كل مناحي الحياة، في المعدن والنبات، وفي البر والبحر والهواء، فشيدت ناطحات السحاب، وأقيمت السدود العملاقة لإنتاج الطاقة، وحولت الصحاري إلى مناطق زراعية خصبة، وعمرت المدن الكبيرة.

ومن هذه الآثار الحسية: ما نشاهد من مصانع تشاد لصناعة وسائل النقل بمختلف أنواعها، السفن البحرية، الشراعية والنارية، والطائرات والسيارات والقطارات، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الثَّمَرِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

ومن آثار التسخير الحسية التي ذكرها القرآن الكريم: صناعة الدروع والأسلحة

(٤) انظر: أضواء البيان، الشنيطي ٤ / ٢٣٦، الوسيط، طنطاوي ٩ / ٢٣٩.

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرَبٍ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة، سميت بها؛ لأنها يذب عنها ويحارب عليها، والمحارب: جمع محراب، وهو الحصن الذي يحارب منه العدو والمهاجم للمدينة، أو لأنه يرمى من شرفاته بالحرب، ثم أطلق على القصر الحصين، وقد سموا قصور غمدان في اليمن: محارب غمدان، وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية، ثم أطلق المحراب على المكان الذي يختلئ فيه للعبادة، فهو بمنزلة المسجد الخاص^(١).

والتماثيل: هي الصورة الممثلة، أي: المجسمة، فكان النحاتون يعملون لسليمان تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم^(٢).

والجفان: جمع جفنة، وهي القصعة العظيمة التي يجفن فيها الماء، وشبهت الجفان في عظمتها وسعتها بالجوابي، وهي جمع جابية، وهي: الحوض العظيم الواسع العميق، الذي يجمع فيه الماء لسقي الأشجار والزروع^(٣).

(١) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٩ / ٥٨٩٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤ / ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢ / ١٦٠.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤ / ٢٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢ / ١٦٢.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

من الحديد.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخَفِّصَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [١٠] **﴿أَن أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَذَرْتُ فِي السَّيْرِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [سبأ: ١٠-١١].

ومن آثار التسخير الحسية التي ذكرها القرآن الكريم: صناعة السدود، فيصور القرآن ما صنعه ذو القرنين ليقف زحف يأجوج ومأجوج على الآخرين.

فقال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُّفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [١٦] **﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾** [١٧] **﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾** [١٨] **﴿فَمَا اسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾** [الكهف: ٩٤-٩٧].

وكان إقامة هذا السد لدفع الأذى عن الإنسان، وقد استخدمت السدود اليوم في توليد طاقة المياه الجارية، فيقيم على مسارها عجالات تحركها المياه فتدير

الطواحين لغلاله.

كذلك عرف الإنسان كيف يقيم مراوح تحركها الرياح، وكيف يحول تلك الحركة إلى إدارة الطواحين، وساهم هذا الاختراع في توليد الطاقة الكهربائية، التي تستخدم في جميع المجالات والاحتياجات الإنسانية، ومن الرياح ما يحمل النفع للناس، ففيها تحريك السفن التي تنقل الناس والتجارة، ومن الرياح ما يحمل السحاب ويسوق المطر.

قال تعالى: ﴿وَتَقَرَّبَ الرِّيحُ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَبْصُرُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] (٢).

ومن آثار التسخير المادية: صناعة الأسورة وأدوات الزينة من الذهب، واستخراج الأحجار الكريمة في خدمة البشر. فمن المياه كان يستخرج اللؤلؤ والمرجان، واللؤلؤ: إفراز كلسي تحتضنه قواقع معينة ذات ضلفتين (صدفتين)، ويكون اللؤلؤ في حبيبات مستديرة أو قريبة من الاستدارة في حجم حبة الحمص، وقد تكون أصغر أو أكبر، بيضاء اللون عادة، وقد يشوبها لون آخر، واشتهرت المياه الدافئة بوجود أصداف اللؤلؤ، ويمارس غواصو اللؤلؤ صناعة الحصول على اللؤلؤ

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٣ / ٢٣١.

(١) انظر: التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ٢٨٧.

الله به إذ آنسه بتلك الأصوات في وحدته في الجبال وبعده عن أهله وبلده، على التمام والكمال، وإذا كان داود وسليمان قد خلع الله سبحانه وتعالى عليهما هذه الخلع العظيمة من نعمه، فإن هذه النعم قد وضعها الله تعالى للبشرية جميعاً، وتسخير هذا الكون بما فيه من الطاقات الهائلة التي تغطي احتياجات البشرية هو الذي يحقق للأمة كرامتها وعزها ومجدها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات. والتكريم: جعله كريماً، أي: نفيساً غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، والتكريم بما جعل الله فيه من المعارف والصنائع، وقبول التطور في أساليب حياته وحضارته، وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة

من أصدافه، أما المرجان فيكون في أعواد متشعبة ذات لون برتقالي أو أحمر، ولها مظهر أعواد النبات، إلا أنها حيوان بحري من عائلة المرجانيات، وهو حيوان رخوي يحمي داخل أعواد كلسية مجوفة، هي أعواد المرجان، ويمكن الحصول على اللؤلؤ وعلى المرجان من المياه المالحة أساساً، ومن المياه العذبة في ظروف خاصة.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلِّي تَالُكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] (١).

ثانياً: الآثار المعنوية:

لقد ذكر القرآن الكريم الآثار المعنوية للتسخير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّاسُ لَهُ الْحَدِيدُ﴾ (١٠) **﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحاً إِنْ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** (١١) [سبأ: ١٠-١١].

بينت هذه الآية الصورة الكريمة والثناء الجميل للإنسان الذي يحقق معنى التسخير، وفي هذا التسخير للجبال والطير مع كونه معجزة لداود عليه السلام وكرامة وعناية من

(١) انظر: القرآن وعلوم الأرض، محمد سبيح ص ١٩١.

وكرامتها، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرْ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحج: ١٣].

فلا يليق بالمسلمين وهم المخاطبون بهذا أن يفروا من وجه هذه المنافع العامة، ولا أن يزهّدوا في علوم الكون، ولا أن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بشمات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه في خزائن سماواته وأرضه، ولهذا نص علماءنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية وحذق هذه الصناعات الفنية فرض من فروض الكفايات؛ ما داموا في حاجة إليها لمصلحة الفرد أو المجموع، وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح، والحياة في هذا الوجود إنما تقوم على التمهّر في العلوم، وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون.

ومما يشير إلى هذه المعاني كلها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَشْورُ﴾ [الملك: ١٥]؛ لترتبه على ما قبله بالفاء، أي: بسبب تذليلها بتيسير المشي في أرجائها، وطلب الرزق في أنحائها بالتسبب فيها من زراعة وصناعة وتجارة إلخ، والأمر في قوله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ

والباطنة، ﴿وَحَلَلْتُمْ فِي آلِ بَيْتِهِ﴾، على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية، ﴿وَالْبَحْرِ﴾، في السفن والمراكب، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾، من المأكّل والمشارب والملابس والمناكح، فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ومن التكريم: أن يكون الإنسان قيمًا على نفسه، محتملاً تبعه اتجاهه وعمله، فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانًا، حرية الاتجاه وفردية التبعة، وبها استخلف في دار العمل، فمن العدل أن يلقي جزاء اتجاهه وثمره عمله في دار الحساب^(١).

وإن آيات التسخير في القرآن الكريم فيها دلالة عظيمة ودعوة للمؤمنين إلى أن هذا التسخير يجب أن يستفيدوا منه في الحصول على كل الطاقات المسخرة في هذا الكون بما يغطي جميع الاحتياجات، ويدفع المسلمين إلى النهضة، ويلفتهم إلى جلال القرآن، ويحركهم إلى الانتفاع بقوى هذا الكون العظيم الذي سخره الله لنا، انتفاعًا يعيد لأمة الإسلام نهضتها ومجدها

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦٩ / ٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧٨٣ / ١١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥ / ١٦٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٢٤١.

تعالى على الأرض، لا يتحقق لها هذا، حتى تحقق هي ذاتيتها، وتخرج القوى الكامنة فيها، وتفجر الطاقات المندسة في كيائها، كالنواة التي تضم في كيائها عناصر شجرة عظيمة، أو نخلة باسقة، تظل هكذا شيئاً ضئيلاً ميتاً، حتى تندس في صدر الثرى، ثم تتفاعل معه، وتخرج خبأها بعد جهد وصراع، أما الإنسان الذي لا يعمل على الانتفاع بما أودع الله فيه من قوى، فيسظل كتلة باردة من لحم ودم، لا يرتفع كثيراً عن مستوى أدنى الحيوانات وأحطها منزلة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾ [التين: ٤-٦].

هذا هو مقام الإنسان في العالم الأرضي، إنه سيد المخلوقات كلها في هذا العالم، مادام محتفظاً بإنسانيته، عاملاً على الارتقاء بوجوده، أما المخلوقات التي في غير هذا العالم الأرضي، فلا شأن للإنسان بها، كما أنها لا شأن لها بالإنسان، ومن ثم فالمفاضلة بينه وبينها شيء غير وارد، وغير منظور إليه، إذ لا تعامل بين الإنسان وبين تلك المخلوقات! (٢).

ومن الآثار المعنوية للتسخير في قوله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ

رَزَقْنَاهُ﴾، للإباحة، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيهاً وحثاً للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب؛ لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها.

وعليه، فقد وضع القرآن الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى، والاستغناء والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنيهاً إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل، وأضاعته من حقها في هذا الوجود، وإن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها حتى الإبرة؛ لتستغني عن غيرها، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت في الإنتاج، وهذا هو واقع العالم اليوم، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية، وقد أعطى الله العالم الإسلامي الأولوية في هذا كله، فعليهم أن يحتلوا مكانهم، ويحافظوا على مكانتهم، ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معاً (١).

قال عبد الكريم الخطيب: «ولكن هذه الخلقة المهيأة لأن تكون بمقام الخلافة لله

(١) انظر: أضواء البيان، الشنيطي ٢٣٨ / ٨، مناهل العرفان، الزرقاني ٢٥ / ١.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٨ / ٥٢٥.

الغاية من الإسلام وهي الأخلاق، كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(١)، كما حث الإسلام على العمل والصمود فيه، فخير الكسب ما كان من عمل اليد.

عن المقدم رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده)^{(٢)(٣)}.

موضوعات ذات صلة:

الأرض، الأنهار، الشمس، القمر، الجبال

(١) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٨٩٥٢، ٥١٢ / ١٤، والبيهقي في السنن الكبرى رقم كتاب الشهادات، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليتها، ٢٠٧٨٢، ٣٢٣ / ١٠.

والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١ / ١١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم ٢٠٧٢، ٥٧ / ٣.

(٣) انظر: النكت، القصاب ٣ / ٦٨٧، روح المعاني، الألوسي ١٠ / ١٦٩.

أَصَابَ ٣٦ وَالشَّيْطَانُ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ٣٧
وَأَخْرَجَ مَقْرِنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ٣٨ [ص: ٣٦-٣٨]

[٣٨]. ففي هذه الآية دليل على عظمة وقوة ملك سليمان عليه السلام وعزة سلطانه، وذلك أن الريح قوة عاتية وجبارة وقد سخرها الله تعالى في خدمة سليمان عليه السلام ومملكته العظيمة، وكذلك الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة تسخر هذه الطاقة في خدمة مملكة سليمان عليه السلام.

وقال تعالى يصف معجزة سليمان في تسخير الرياح: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَرُّورًا وَأُخْطَا شَهْرًا﴾ [سبأ: ١٢].

وقال جل وعلا: ﴿وَرَزَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرُ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وهكذا صور القرآن الكريم الحرف الصناعية تصويراً معجزاً ليرسي الخلق الإسلامي، خلق القرآن الكريم؛ فيتحقق ما يأتي: التشريع والتقرير لهذه الصناعات، وأنها مشروعة من قبل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وغرس القيم وتنمية الفضائل من خلال التشريع لهذه الصناعات المتنوعة، لتحقق